مرايا الوهم والواقع

الحياة ماكرة ولولبية... والصداقة خط مستقيم

صادق الصائغ

كنت على اعتقاد دائم بأن الصداقة في الشرق ، بين رجل ورجل ، اقوى من مثيلتها في الغرب ، فهي ، رغم بدائيتها ، روحية، سخية ، وخصبة بلا حدود . عظيم عصره الفرنسي جان رينوار ، وآخر لا يقل عظمة عنه ، هو بورخيس ، كانا يتبنيان الإعتقاد نفسه . بورخيس في قصيدته الرائعة " قصيدة شكر اخرى " وصف الصداقة بأنها " فن عظيم " ورينوار ، ودّ لو يطلق عليها صفة الحب، لكن ، لو قلنا حبا – يستدرك – ، فلربما ظن القارئ ان الامر يدور عن شذوذ او شيء من هذا القبيل . وانا من جانبي ، دهشت وسررت في نفس الوقت ، عندما عرفت ان هذين العبقريين يعتنقان نفس الفكرة التي ظننتها يوما من بنات افكاري ، وافترضت ، ممازحا نفسي ، انهما خطفاها مني بطريقة التلباث (رينوار توفي عام ١٩٨٢ وبورخيس عام ١٩٨٦ ، فهل يجري التلباث بين أموات وأحياء ؟!)

ومع ان رينوار لا يقلل ابدا من صداقة الغربي للغربي ،ويراها عميقة ونافعة، إلا انها، في رأيه ، لا تصل دائماً الى درجة الحب الشرقي، إذ، ربما بسبب غياب الإيمان، ظل يعتقد بأن فيها قطباً ناقصاً وإنها،على الأغلب ، وسيط بين اثنين ، قد تكون محصلته تسلية او ربحاً ،او معرفة عميقة او ثروة ، لكنها ، تتوقف هنا، عند هذا الحد ، فعصر التكنولوجيا الغربي ، رغم ايجابياته ، هو عصر الفوائد والمنفعة، و في مثل هذه الشروط ، الصداقات العميقة ، تُسحق او تندثر الى حد كبير .

.

لقد سقت هذا الكلام لأتحدث عن صداقة من هذا النوع قامت بيني وبين سهيل عبدالله ايام الدراسة الثانوية ، فمنذ ان التقينا في احدى الاجتماعات الطلابية ايام حكم نوري السعيد ، لم نعد نفترق . اصدقاؤنا الذين تعودوا رؤيتنا معا صباح مساء ، صاروا يسألون احدنا عن الآخراذا ما شاهدونا مفردين. اوقات فراغنا نقضيها ، مع بقية الشلة ، في مقهى ابو احمد في الصالحية ، وعلى حصير تخوتها كنا نراجع الدروس ، نناقش في السياسة ، نقرأ روايات ممنوعة مثل " الأم " لمكسيم غوركي و" رجال وفئران " لجون شتاينبك و" من اين نبدأ " لخالد محمد خالد . وبالإضافة الى السفرات ، كنا نقوم ، احياناً ، بمغامرات لا تخلو من مخاطر ، كتوزيع النشرات على مدارس البنات ، ومنها مدرسة في باب المعظم ،تقع على مقربة من السجن المركزي ، وكانت لسهيل علاقة حب بإحدى الطالبات ، وطبعاً من طرف واحد . اما في ساعات العصر ، وهي افضل الساعات ، حيث يحل موعد السباحة ، فعبوراً مع التيار الى الضفة الأخرى، حيث عند " الجراديغ " ينتظرنا رجل هندي يبيع بعشرة فلوس" السنبوسة " الهندية الحارة و" الباكورة " و"العنبة " والأبيض وبيض " ، ومن هناك ، ننطلق ، مشيا على الأقدام باتجاه الباب الشرقي ، نتفرج على صور الأفلام الأجنبية التي تعرضها الفترينات ، قبل ان ندخل سينما غازي التي كانت مختصة بأفلام شركة فوكس للقرن العشرين اوسينما روكسي المختصة بأفلام مترو كولدين ماير.

ذات يوم ،وكنت معتقلا لفترة طويلة، بعد اضراب فاشل قامت به ثانويتنا —ثانوية الكرخ للبنين– ضد حلف بغداد عام ١٩٥٤ ، فاجأني سهيل بما لم اكن اتوقعه ، دخل القاعة ، بعد ان فتح له الشرطي البوابة الحديدية ، وقال ، وعلى شفتيه الق ابتسامة خفيفة :

– طائش ، اليس كذلك ؟ قل ما تشاء، قلها في وجهي . لقد كنت مشوشاً عصبياً وانا طليق ، ولا اعتقد انك ستفهم ذلك !!

ينبغي ان اذكر للقارئ هنا ان ثلاثة من بين اربعة نظموا ذلك الإضراب ، وهم رضا الشوك أخو الكاتب علي الشوك ويعيش اليوم في رومانيا ، وسهيل عبدالله وفاضل (نسيت اسم ابيه للأسف) استطاعوا الإفلات من قبضة الشرطة، ساعدهم في ذلك سهيل الذي كان الأشجع والأكثر إقداماً ، وقد رد الصاع صاعين لمن تصدى له من رجال الشرطة ، اما المناوشات الناجحة التي احرزها اثناء مقاومته مهاجميه ، فقد بدت في عيون الطلاب ، من صنوف البطولة . وللأسف فإن الرابع، الذي هو انا ، لم يستطع الإفلات ، فضعف بنيتي في ذلك الوقت اوقعتني صيداً سهلا لأكثر من عشرة شرطيين استفردوني في احدى الزوايا ، واشبعوني ضرباً ، قبل ان يلقوا بي في مركز الدوريين معتقلاً .

بعد صمت طويل ، تركت فيه لسهيل حرية ان يجيب على سؤال : لماذا سلم نفسه ، قال أخيراً انه لم يعرف ماذا يفعل بحريته ، فبعد القاء القبض عليّ ، اختفى هو في بيت اقربائه لفترة، عمل سائقا لشاحنة تنقل الحصى بين بغداد والحبانية لفترة اخرى، قرأ ما وقع بين يديه من الكتب، وفي نهاية حيرته ومتاهته ووحدته قرر الأستسلام.

وجد ، كما قال ، ان حريته الحقيقية ، ما كانت ستعني شيئاً ، بغياب حاسة الإطمئنان ، ومع انه يعرف مسبقا اني ، بتسليم نفسه ، سألقي اللوم عليه ، فقد ترك لقصته ان تحكي عن نفسها وإن بشكل مشوش ، وهذه ،بالنسبة له ، هي الطريقة الوحيدة التي نكون فيها ، انا وهو ، على قدم المساواة ، في السراء والضراء.!!!. إنه ببساطة ، لم يجد الإطمئنان بعيدا عن وجودنا المشترك ، ولم يتحمل ان يجدني في الجهة الأخرى من العالم .

وعلى سياق " من لسانك ادينك " ذكرني بقول قديم كنت اردده مع نفسي واكتبه في دفاتري المدرسية : نعم ياصديقي ، الحياة ماكرة ولولبية ، لكن الصداقة خط مستقيم .

لقد توصل سهيل أخيراً ، مع ابيه الى صفقة، انْ يسلم نفسه ، مقابل ان يستخدم ابوه المتنفذ علاقاته ومعارفه مع المسؤولين ، فيكون مكان اعتقاله في نفس مركز شرطة الدوريين ، اي نفس مكان اعتقالي .!!

لقد مر على ذلك الحادث قرابة الخمسين سنة ، ولأن الماضي في بعض الاحيان ينشأ امام العين من الحاضر، فما زلت احس ، كلما مررت بمنطقة الجعيفر ، حيث كان سهيل يسكن، انني اسير ومقيد بذكرى تلك الصداقة البعيدة. وكان يمكن لبورخيس ورينواران يعتبراها ، لو كانا سمعا بها ، من ذلك النوع الذي تحدثا عنه . ومازلت استطيب اغماضة عين شفيفة، ارى فيها سهيلأ ، كما في فلم صامت ، ينحدر مع التيار نحو الضفة الأخرى ، يلوح لي من بعيد ، ويحرك ، من ذلك الماضي ، امواج الكلام القديم .

قد سألت عن سهيل ، بعد عودتي من منفاي كل من ظننت انه شهد وقائع تلك الصداقة ، لكن دون جدوى ، فلا احد يدري بمكانه الآن . ولم يبق لى إلا ان اسأل : هل سافر الى مكان لايعرف به احد ؟ هل حمله الزمن الى فردوس بعيد ؟!!

ليسمح لي القارئ ان افترض ان قصيدة " اختيار"التي اهديتها لسهيل تؤرخ لتلك الصداقة التي اراها اليوم تشف عن اصالة بعيدة المنال ، وانها ، بكل تأكيد ،ستفلت من كل القواعد ومن اية تصنيفات يمليها علينا الزمن وحسابات الأرباح والخسائر.

البورتريت بريشة الشاعر

اختيار

-١-

مَاذا نَفْعَلُ يَا ضَوْءَ الوَرْدَهْ

مَاذَا نَفْعَلُ كَي نُوْجَدَ مِنْ اجْلِكْ ؟

فَلَقَدْ جِئْنَا مِنْ مُدُنٍ فَاجِعَةٍ

وَتُرِكْنا نُوْلَدُ تحْتَ المِطْواةْ

-٢-

مَاذَا نَفْعَلُ يا إمرَاةَ اليُتْمْ ؟

فَلَقَدْ حُوْصِرْتِ امَامَ الفُوهَهْ

وَتَناثَرْتِ امامَ العَيْنِ كَرِيْشِ العُصْفُور

-٣-

كَانُوا يَنْتَظِرُوْنَكِ ياعُنقَ الضَوْءْ

يَنْتَظِرُونَكَ مِنْ بَيْن جَمِيعِ الاحْيَاء

ويُرِيْدُونَكِ مِنْ بَين جَمْيعِ القَتْلى

مَاذا نَفْعَلُهُ

نَحْنُ بَقايَاكِ،

بَقايَا مِجْزَرَةِ الأَمْسِ،

سُلالاتِ الانْهَارِ

سُلالاتِ الضَوْءِ المَطْعُونْ ؟

-٤-

مَاذَا نَفْعَلُهُ

نَحْنُ المَنْوُعِيْن

المُضْطَرِمِيْنَ امامَ القَيْدُوم ،

ابْنَاءَ القِيْعانْ السُفْلى ،

الأَسْرَى وَزُهُورَ الجُوْعْ

المَسْمُوحَ بأنْ يُرْمُوا فَوْراَ

وَبأيِّ مَكانٍ وُلِدوا فيه ؟

مَاذَا نَفْعَلْ

بِذِرَاعَيْنِ حَزِيْنَيْنِ وَعَزْلاوَيْنْ ؟

مَاذَا نَفْعَلُهُ بَعْدُ

سِوى أنْ نَأتِيْكِ وَنَجْلسَ قَرْبَكْ

نَخْتَارُكِ آهَةَ عَصْرٍ آخَرْ

نَصْطفّ بِقُرْبَكَ ثَانِيَةً

وعلى نَفْسِ الحائِطِ ثَانِيَةً

ونُضيءَ مَعاً

فِي عشٍّ الإعْدَامْ

رسائل جامعية

تحولات السببية

عرض :علي المالكي

صدر ضمن سلسلة (رسائل جامعية) كتاب تحولات السببية.. دراسة في فلسفة العلم للباحثة الدكتورة افراح لطفي عبد الله، والكتاب في الاصل، اطروحة دكتوراه تميزت في كونها اهتمت بدراسة واحد من اكثر المفاهيم اهمية في تاريخ المعرفة العلمية والفلسفية.

ويقع الكتاب بـ(٢٨٧) صفحة من القطع الكبير وتوزع على مقدمة وثلاثة فصول اضافة الى الخاتمة وقائمة المصادر، ومنذ البدء تكشف الباحثة عن المنهج الذي اختطته في دراسة (السببية)، وهو منهج العالم الامريكي توماس كون، ثم انتقلت لتعريف السببية وعلاقتها ببقية المقولات مثل الضرورة والتنبؤ العلمي والحتمية والقانون والتفسير والذريعة واكدت في الفصل الاول ان البحث معني بدراسة (السببية الطبيعية) من وجهة النظر الفلسفية.

كرست الباحثة الفصل الاول لدراسة نموذج السببية المقدس وهو النموذج الذي تشكل منذ بواكير الفلسفة وساد الى نهاية القرون الوسطى.

وقسمت الفصل الاول الى ثلاثة مباحث تناولت في الاول نموذج السببية التأملي، والمبحث الثاني خصصته لنموذج السببية الميتافيزيقي، أما المبحث الثالث فتوقفت فيه عند نموذج السببية الالهية.

في الفصل الثاني انتقلت الباحثة لتدرس، متسائلة، نموذج السببية اليقيني، الذي ظهر مع بداية التطلع نحو الفهم الصحيح لحركات الكواكب، والافلاك، وتوزع الفصل الثاني على تمهيد وثلاثة مباحث تناولت في الاول نموذج السببية العقلي وفي الثاني نموذج السببية التجريبي، وفي الثالث تقصت (بوادر اختراق السببية) واستعرضت في الفصل الثالث التطورات التي حصلت لمفهوم السببية مع ظهور نموذج (الاحتمال) بوصفه بداية عهد جديد للفلسفة وتوزع على ثلاثة مباحث درست في الاول تعزيز السببية مع التيارين المادي والواقعي الجديدين، ثم عرضت للسببية من وجهة نظر التيار البرجماتي والحدسي، حتى تصل للمبحث الثالث لتدرس (رفض السببية) مع التيار التحليلي والتيار الوضعي المنطقي.

اما الفصل الرابع فقد اجتهدت الباحثة فيه لدراسة مكانة السببية في الفيزياء الجديدة ونموذج ما بعد الاحتمال من خلال ثلاثة مباحث، كان اولها عن نموذج الاحتمال الفيزيائي وثانيها النموذج الفيزيائي للسببية، اما الثالث فكرسته لنموذج السببية المتوسع، أما في الخاتمة فقد انتهت الباحثة لتقرير وجود عدة نماذج للسببية، وتعتقد الباحثة ان نموذج السببية المتوسع هو النموذج الذي يستطيع ان يستوفي شروط التقدم اللا نهائي للعلم واستيعاب المشكلات اللانهائية والتوقعات والامكانات والاوجه التي لم يتم حتى الان اختيارها لتحقيقها في كيان.

غلاف الكتاب

نص

رزان وفيروز..

عبد الرزاق رشيد

قال لها محمد: هل تحبينني؟
قالت رزان: نعم
قال: كم؟
قالت: بقدر الشمس، والسماء، والعصافير..

ورزان هذه طفلة صغيرة تشبه العصفور كثيرا، وهي تسكن في شقة صغيرة مع العائلة، كلها.. وهي كثيرا ما كانت تطل على الزقاق، من الشباك الوحيد في الشقة وكانت مولعة بالنظر الى الاولاد يلعبون، ولانها ذكية جدا، وحساسة، فقد ميزت محمد من بين الاولاد، ربما لاشياء غامضة تحسها بشكل فطري، ومن دون تحديد، وكان محمد يدعوها، لتنزل من الشقة، في الطابق الثاني، الى الزقاق، فكانت تفعل، بعد اخذ الاذن، من امها او جدتها، وكانتا تأذنان لها بذلك، لانهما تحبان محمد، وتثقان به كثيرا، وكان هو يمتلك من الطفولة براءتها ودهشتها، وهذا ما اوجد لغة مشتركة، وتفاهما حميما بينه وبين رزان فكانا يلعبان معا، ويتحدثان باشياء كثيرة حديث ثرثرة طفولية عذبة وكان العالم يغرق من حولهما، في الفوضى، والعماء، وفي القتامة والبؤس، وكانا اشبه بومضة نور صغيرة تشرق حينا وتنطفئ حيناً آخر.

كنت اتأمل هذه العلاقة الغريبة، بين طفلة صغيرة وشاب، مثل محمد، وكان ينبجس في داخلي شعور بالفرح وبالفهم العميق من ان الحياة، تتواصل عبر دوافع خفية، مضمرة، تعيش في ضمير الاطفال الطري، وتتنفس عبر عبثهم البريء، محمد يعيش مع رزان لحظات طفولة متأخرة، سعيدة، والطفولة قبل أي شيء حب عارم للحياة، وانبهار ودهشة متواصلة وهي اكتشاف فرح لابسط الاشياء، الطفولة هالة من الضياء تحيط بكل الاشياء في الطبيعة والحياة.

ومع الايام ظلت رزان تطل من شباك الشقة الوحيدة، وتتحدث مع محمد في الزقاق او تنزل اليه، ويذهبان لشراء الحلوى والمرطبات.

رزان تسمع حكايات كثيرة من امها وابيها وجدتها، وربما تأخذها الحيرة والذهول لهول ما تسمع من بشاعات وحماقات، ما يجري خارج شقتهم، هناك صخب وضجيج، وهناك تفجيرات وقتل، وارهاب، وهي لا تعرف لماذا يحدث كل ذلك، وحين يأخذها الفزع، ويعتصرها الخوف، تروح تغني، بعض الاغاني الاثيرة لديها، خاصة بعض اغاني فيروز.

ويسألها محمد، لماذا فيروز فقط؟.. وهي لا تعرف ولا تدري لماذا، فقط انها تحبها، ولانها تلوذ بها من الخوف، وتحتمي من العذاب الغامض الذي تعيشه وهي تسمع تلك الحكايات القاسية والبشعة.

مرة قالت لمحمد: اتمنى ان اكون عصفورا لاطير في السماء، واذهب الى الحدائق والبساتين، انني اختنق في هذا الزقاق الضيق، وحين اخرج مع امي او ابي الى الشوارع لا اجد سوى الحواجز المخيفة واكوام النفايات والازبال، والاكثر من هذا زعيق صفارات سيارات الشرطة، وعويلها المرعب. تتصور رزان ان سيارات الشرطة تبكي وتولول مثل جارتهم ام فاطمة، التي فقدت ابنتها الوحيدة فاطمة، ورزان تسأل دائما متى ينتهي هذا ويأتي العيد، والعيد عند رزان كما هو عند الاطفال، ضحك واراجيح، وملابس جديدة ملونة، وهي دائما لا تتلقى جوابا، فتروح تغني، بعض اغاني فيروز، وفيروز هي الاخرى طفلة، مثل رزان لذلك هي تحبها وتجد في اغانيها سلوى ومتعة وطمأنينة، واعتذار، عن القسوة والبشاعة، في الحياة.

ورزان تخاف على العصافير والطيور المذعورة، حين تسمع اصوات الاطلاقات التي تدوي وتتفجر بين الحين والاخر، وربما لفترات طويلة متواصلة، ولان العصافير والطيور مخلوقات رقيقة دافئة، تنبض بنبض مرتعش فهي لا تعرف كيف تختبئ، ويزداد فزعها واضطرابها مع الاطلاقات.. ورزان تخاف من كل ذلك.

مرة سمعت رزان محمد يقول لصاحبه: تعال نذهب الى السوق.. هنا قفزت رزان الى الشباك، واطلت بوجهها الصغير،وهي تصيح بأعلى صوتها: محمد، محمد، لا تذهب الى السوق، هناك انفجار.

ولان الانفجارات هي الخبز اليومي للناس، فالذعر والخوف هما الخبز اليومي لرزان، لذا فهي قلقة مرتبكة دائما، وهي مناكدة وشرسة مع امها وجدتها، ومع محمد، دائما. ولان هذا النكد، وتلك الشراسة لا يناسبانها، فهي تشعر، بالذنب وهي مهمومة متألمة بسبب ذلك.. ترى كيف يجتمع المرح والحب، مع الاكتئاب والمرارة، والشعور بالذنب، في قلب طفلة صغيرة في الرابعة من عمرها؟ ورزان لا تستطيع ان تجيب على هذا التساؤل.. وتعتريها بين الحين والاخر.. حالة من العبث واللامبالاة، فتروح تضحك بهسترية وصخب، وبغرابة مؤلمة، تحاول الانفلات من هذا الحصار الذي يطوقها، وشيئا فشيئا يعود لها الصفاء وتعود لها الطفولة ويعود لها الفرح، واغاني فيروز.